

المشكلة

إنها لساعة متأخرة، والله وحده يعلم أنه كان يوماً طويلاً متعباً، وأخيراً خلد الأطفال إلى النوم، والجدل مع رئيسي في العمل (أو الزوج أو الزوجة) أكاد أكون قد نسيته. يعلم معظمنا إلى أين الملاذ مع نهاية يوم متعب؛ إذ نفتح حاسبنا المحمول ونبدأ البحث بسهولة عن لقيمات سهلة الهضم من التسلية أو الأخبار، نجول بنظرة سريعة على حسابنا في الفيسبوك أو رسائل البريد الإلكتروني، وأخيراً، نتعب من كثرة النقر والتنقل على الشبكة من موقع إلى آخر، ونصبح جاهزين للنوم.

هناك بديل أفضل، كما تعرف مسبقاً؛ ألا وهو قراءة الكتب؛ سيمنحك الكتاب صحبة أصدق وأكثر استمرارية من الومضات التي يمنحك إياها عالم الاتصال بالشبكة. وحتى إن كنت قرأت مقدماً بتوقٍ وغزارة، فإن المعرفة أكثر عن كيفية القراءة ستمكنك من الغوص بنفسك في الكتاب بصورة صحيحة؛ لتُمكنه من ترك تأثيره فيك، وتسمح له أن يكشف عن آفاق جديدة، وتجارب جديدة، ومن الضروري أن تتخلى عن النفس الاجتماعية المنشغلة مقدماً، كي تكون مستعداً لهذه الجِدِّ، وبعد ذلك وكما صاغها روبرت فروست Robert Frost في قصيدته بعنوان (المرشد) (Directive)، ستكون «ضائعاً تماماً كي تجد نفسك / الآن»، وإن الكتاب الذي تلجأ إليه قد يربكك أو يحيرك، ولكن مثل ذلك الضياع سيمكنك في نهاية المطاف من استعادة نسخة أصدق عن النفس.

تقريباً، إن كل تأثير يحيط بنا يفرض عكس نوع القراءة الذي أنادي به في القراءة المتأنية في عالم السرعة؛ إذ إن عصر التشبث الرقمي يلقي تحديات غير مسبوقة في وجه القراء؛ حتى بتنا مهيين للإلقاء نظرة سريعة، والتصفح بسرعة، والحصول على زبدة الرأي، والتحرك بسرعة، فنحن مهووسون بالسرعة، ونريد تحميل المعلومات بسرعة، والأخبار لحظة بلحظة، وآخر التغيرات.

ليس قصدي هنا إرسال نواح وهمي، أو الادعاء أن الأيام الخوالي كانت دائماً أفضل. قد تتساءل لماذا أنادي بموقف ضد وسائل الإعلام الإلكترونية، بدلاً من الاكتفاء بمدح الكتب وقراءتها؟ السبب بسيط؛ فأنا أقرع جرس الإنذار حول مصائب العصر الرقمي؛ لأنه من المهم إدراك ما سنواجهه نحن القراء. ويجب مواجهة التحدي علناً، مع الاعتراف الكامل بمدى صعوبة القراءة بصورة جيدة الآن مقارنة ببضع سنين فقط خلت. (ومن الصحيح أيضاً أن التقنية الجديدة قد أسهمت في تقدم البحث في العلوم والإنسانيات، وأدت إلى الاكتشافات العلمية، ولكنني أركز في تأثير هذه التقنية في حياة القراء، وتلك صورة أكثر قتامة).

ولأننا مغمورون بتدفق من النصوص لا نهاية له، فنادرًا ما يتوافر لدينا الوقت للتوقف والتأمل، إذ تحيط بنا الرسائل السريعة المهملة كشلال متواصل؛ تقف هذه الموجة المدية من الكتابات السيئة التي يتطلب معظمها ردًا سريعًا عائقًا أمام القراءة الصحيحة التي تستغرق وقتًا وتركيزًا. سيوضح لك القراءة المتأنية في عصر السرعة كيفية القراءة بطريقة قوية ومنتجة؛ طريقة ستزيد من قوة عقلك الخلاقة بدلاً من وضععتها. حتى في خضم أسلوب الحياة الحالي المتصل باستمرار بطريقة لا ترحم، فإن القراءة المعمقة ممكنة، ولكن إن رغبت في القراءة بعمق وبصورة جيدة، فستحتاج إلى بعض الإرشاد، الآن وأكثر من أي وقت مضى، إذا ما أخذنا في الحسبان الطاعون المهلك الناتج من أشكال الانحرافات واللهو المقيسة بالبايت.

إن العاصفة الرقمية الحالية لا سابق لها حقاً، وحتى عشرين سنة مضت، لم يكن بوسع أحد تصورهما، وقد كتب الأكاديميون ونشروا خلال القرن العشرين كمّاً ضخماً من الحجج دفاعاً عن الكتب وضد وسائل الإعلام الحديثة (الأفلام، والتلفزة، والمسرحيات الهزلية)؛ فقد رفعوا الصوت بالحاجة إلى (إنقاذ القراءة) في مواجهة أعدائها الخطرين جداً، ولكن لم يفلح ولا واحد من هؤلاء المحتجين -وبعضهم كانوا للحق أصحاب حملات متميزين- في توقع ما حصل حقيقة؛ إنها بيئة الكلمات الحاضرة دائماً على شبكة الإنترنت التي تُلْفُنَا كالهواء الذي نتنفس، وعندما نادى مورتايمر أدلر Mortimer Adler بقراءة الكتب في أمريكا بعد الحرب، فقد كان قلقاً من مستقبل لا يقرأ الناس فيه فحسب. (إن كتاب أدلر بعنوان كيف تقرأ كتاباً (How to Read a Book) الذي كتبه عام 1940م، بيعت منه ملايين النسخ في العقود اللاحقة). ولأن الناس كانوا ملتصقين بالتلفاز -الذي كان وقتها اختراعاً حديثاً- كان أدلر خائفاً من أن نصبح كسالى فلا نفهم سوى الصور، وليس الأشياء المكتوبة. لم يكن بوسعه تخيل المستقبل الذي وقع حقيقة، مستقبل يقرأ فيه كل إنسان مباشرة وبصورة سيئة. وإن كُتِّباً أمثال أدلر وتشارلز فان دورين Charles Van Doren (الذي راجع كيف تقرأ كتاباً (How to Read a Book) مع أدلر في عام 1972م)، أو نيل بوستمان Neil Postman في هجومه العنيف على وسائل الإعلام في عام 1985م بعنوان تسلية أنفسنا لحد الموت (Amusing Ourselves to Death)، لم يتخيلوا قطُّ غيمة النصوص الصغيرة، والبريد الإلكتروني، والتغريدات والرسائل المباشرة التي تندفع نحونا كالسهام، وتطوف حولنا طوال اليوم.

لقد وضعت شبكة الإنترنت كل شيء في ضوء جديد، بسرعة البرق، ومع ذلك مشوه. وإن الجملة المؤقتة المتقطعة تُحترم اليوم على أنها أكثر حيوية من الجملة المنتهية الرصينة، وإن البلاغة والاسترسال المتقن يبدوان اليوم على أنهما مضيعة للوقت وينتميان إلى جيل أقدم أقل سرعة؛ هل كان بوسع براوست الذي قَدَّر أشكال المكافآت والعقوبات التي يمنحها الوقت للروح، تحمُّلُ حقبة التغريدات؟

بالتأكيد لا يمكن أن تُعدَّ أشكال التغريدات كلها من طبيعة واحدة؛ إذ إن السخرية والإيجاز والفتنة ممكنة على موقع تويتر، ولكنها نادرة. يناهض توتير بضراوة القول المصقول؛ ويفضل الكلمات التي يشعر المرء أنه يمكن الاستغناء عنها بسرعة. وإذا ما تمت إعادة تغريد شيء ما حول العالم، فلأنه يحمل على ما يبدو أخبارًا، وليس لأنه يلخص إحساسًا أو فكرة بدقة أزلية. وغالبًا ما تشبه التغريدات الأكثر شعبية العناوين الرئيسية، والنكات، أو أشكال الإهانة؛ فهي قاسية وتهكمية وفضة نسبيًا. وعلى موقع تويتر، تُفضَّل اللكمة السريعة على الحكمة، وتجعلنا تغريدات المشاهير نشرب من نوافير القيل والقال أو الدم، وتلك مصادر لا تنضب في أي مجتمع حديث، ولكن القيل والقال هو للحظة الآنية؛ إذ يفقد طعمه بمرور الوقت. ولم يعد المرء يرغب بمقتطفات من كين ويست Kanye West، أو حتى من جي-زد Jay-Z، إلا كما يرغب بمجموعة من العناوين الرئيسية لصحف العام الماضي؛ فهي وإن كانت تأخذ بالألباب وقتها، إلا أنها قديمة الآن.

إن القراءة الحقيقية للكتب الحقيقية؛ أي القراءة المصممة لزيادة قوة المرء الإبداعية، لا تفقد زخمها أبدًا؛ فهي لا تخضع للوقت كما هي حال البريد الإلكتروني، وموقع تويتر، والرسائل المباشرة. إن مثل هذه القراءات تتطلب وقتًا منك كي تمنحك شيئًا سرمدياً؛ كمعرفة بكتاب بطريقة تقنعك بالعودة إليه مرات ومرات؛ ومن ثم تحصد جوائز أعظم تتناسب وطول الوقت الذي تمضيه معه. إن الوقت؛ الحاجة إليه، وبماذا ينفع، هو المفتاح لفكرتي عن القراءة التي تستحق العناء. وفي عصر المعلومات، نخصص جائزة كبرى للحصول على ما نحتاج إليه، أو ما نعتقد أننا نحتاج إليه، بأسرع ما يمكن، وتكمن المشكلة في أن كل شيء يحدث بسرعة كبيرة حتى إن قدرتنا على اتخاذ القرار تُسلب منا؛ إننا نشعر - وذلك حق - أننا ما عدنا قادرين على تحديد ما يستحق انتباهنا وما لا يستحقه، ولقد بدأنا بالمعاناة نتيجة ذلك، وأصبح الأطفال والمراهقون مدمنين على النشاط المستمر بالنقر، والإيقاع المتنافر الذي يتحكم في حياتهم اليافعة، وقد دقَّ حشد من اليهود الأرثوذكس المتشددین ضد الإنترنت في نيويورك ستي فيلد في أيار من عام 2012م ناقوسَ الخطر بقوة (مع أنه يجب على المرء

القول: بطريقة رجعية نسبياً). ويرى إيفرايم وتسمان أننا في الطريق لأن نصبح «رؤوسًا بلا عقول؛ فإن أصابك الضجر من شيء ما، فعليك بالنقر فحسب».

وهناك مسحان حديثان شائعان جدًا أجرتهما Pew Foundation & Common Sense Media مؤسسة بيو وكومن سينس ميديا تؤكدان الإدراك المتنامي عند الأساتذة بأن استخدام الطلبة الدائم للتقنيات الرقمية يؤثر في مقدرتهم على التركيز؛ إذ يعتقد 90% من المعلمين الذين شاركوا في المسحّين أن التقنيات الرقمية توجد (جيلاً سهلاً التشتت الذهني وبأوقات تركيز قصيرة). يقول جيم ستير؛ الرئيس التنفيذي لكومن سينس ميديا، معلقاً على نتائج المسح: «بني، هل هذا صوت تحذير للحصول على وجبة صحية ومتوازنة من وسائل الإعلام؟»، ويقول أيضاً: «ما عليك فهمه بوصفك أباً هو أن ما يحدث في المنزل من استهلاك لوسائل الإعلام يمكن أن يؤثر في الإنجاز الأكاديمي».

يستشهد الناقد الثقافي مارك بيرلن بمسح قامت به مؤسسة عائلة كيسر Kaiser Family عام 2005م يُظهر أن قراءة الكتب في أثناء وقت الفراغ يمثل المتنبئ الأذق على الإطلاق بأن الأطفال بين الثامنة والثامنة عشرة سيواصلون الدراسة وينجحون في الكلية، وأن شبكة الإنترنت تسرق الوقت من القراءة الممتعة الجادة بصورة لا يمكن لأي وسيلة أخرى القيام بها، ونحن معظمنا يرغب في أن يلتحق أبناؤه بالجامعة (حتى وإن كانت الحال كحالي؛ أي تقدم بنا السن بما يكفي لينسينا معظم ما حدث هناك). إن الاستخدام الدائم للإنترنت يعيق استعداد اليافع لاكتساب عادات الدراسة المكثفة التي تحتاجها الدراسة الجامعية.

لا يمكننا التخلص من شبكة الإنترنت، وحقيقة، ونحن لا نرغب في ذلك؛ فقد جعلت عالمنا أكثر راحة، وأكثر اتصالاً ببعضه ببعض؛ إذ يمكننا العثور على المعلومة التي نحتاجها بسرعة، ونستطيع التواصل مع مجموعة أكبر من الناس أكثر من قبل. لقد وسّعنا من معرفتنا بما يحدث الآن، وفي كل مكان، ولكن هناك خسارة كبيرة؛ خسارة المتع الفكرية الخاصة، كالقراءة الجدية؛ فالإنترنت على غير شاكلة الكتاب لجوجة على الدوام؛ وقد سمعت مراراً وتكراراً من الأصدقاء عن تجربة نادرة؛ وهي فرحهم عند انفصالهم عن الإنترنت في عطلة

نهاية الأسبوع، عادة في بقعة استجمام بعيدة؛ حيث يمكنهم حقيقة الاسترخاء والتركيز- كما يخبرونني- ويتخلصون من حياة العجلة المعتادة. إن شبكة الإنترنت تذكرنا بالأشياء كلها التي علينا فعلها، في المكتب، وبصورة متزايدة في البيت أيضاً؛ فعندما نتخلص منها لمدة قصيرة فإننا نشعر بحريتنا.

تقدم الإنترنت كما يبدو حجمًا لا نهاية له من الخيارات، ولكن عندما نفوس في هذا المحيط الإلكتروني من الإمكانيات، غالبًا ما نشعر أننا قد حُرمتنا حرية الاختيار تلك، وبالمقارنة بالسوبر ماركت لا تطلب إليك الشبكة مقابلاً لاختياراتك، بل هي تؤكد أن المعلومة مجانية.

ولكن وفرة الاحتمالات المتركمة على الشبكة تخفق في تحريرنا؛ فهي تتحكم فينا إذ تطلب إلينا الاختيار بقدر ما نستطيع، وبعدد المرات الممكن أيضاً؛ فمن ثم لا نفقد أي شيء. وأكثر ما ينطبق ذلك على مسألة القراءة التي تشق طريقها إلى الإنترنت؛ فلدينا الكثير من الخيارات؛ القراءة أو إلقاء نظرة سريعة عليها، والنتيجة هي الانتباه الجزئي المستمر (CPA) الذي يحدث عندما نحاول القيام بالكثير من الأعمال في الحال.

تشرح ليندا ستون التي صاغت المصطلح، أن الانتباه الجزئي المستمر Continuous Partial Attention ليس مثل تعدد المهام، فعندما نقوم بمهام متعددة- كما ترى- نقرن نشاطاً تلقائياً إلى حد ما بأخر يحتاج إلى مزيد من الانتباه؛ فعلى سبيل المثال، نتناول الغداء ونحن نكتب أو نتحدث بالهاتف، ويبقى النشاط الأساسي هنا دائماً- الكتابة، والتحدث على الهاتف- محط تركيزنا الأولي، إذ إن أكل الشطيرة لن يحول الانتباه عن مهمتنا الأساسية.

تكتب ستون أن الانتباه الجزئي المستمر مختلف؛ لأنه عندما يبدأ «نُحَفِّز برغبة لعدم تقويت أي شيء»،

ويزرع فينا الانتباه الجزئي المستمر نوعاً من اليقظة ليست من مزايا تعدد المهام؛ فمع الانتباه الجزئي المستمر نشعر بحيوية مفعمة عندما نكون على اتصال وتواصل وإمام بالمعرفة؛ إننا نبحث دائماً وبسرعة عن الفرص- أنشطة أو أناس- في أي لحظة...

والانتباه الجزئي المستمر مفعّل دائماً، في أي مكان، وأي زمان، وأي سلوك مكاني يوجد إحساساً زائفاً بالمحنة؛ إذ إننا دائماً على درجة عالية من الحذر.

يمكن لتلك الجرعات الصغيرة من اليقظة والحذر أن تكون مفيدة، ولكن التقنية الحالية التي تحاصرنا من كل جانب بفرص ملاحظة شيء جديد، تفرض علينا الانتباه الجزئي المستمر. وتخلص ستون إلى القول: «وأكثر فأكثر، يشعر العديد منا (بالجانب المظلم) من الانتباه الجزئي المستمر، وفرط التحفيز، وقلة الإرضاء». يبدو أن هناك في كل لحظة رابطاً جديداً يعيقنا، ومقالاً أو معلومة تثيرنا بعنوان رئيسٍ تعدنا أننا سنكون ملمين بالمعلومة إذا قمنا بالتحقق فقط، وأمضينا بضع ثوانٍ في النظر إليه. إن اللفتة هنا هي حملك على النقر؛ أي إغراءك لتقفز إلى (الفخ)، ومن ثم تصل إلى بقية المقال (والأهم إلى صفحة إعلانية جديدة).

إن الأمراض المتعلقة بالتوتر النفسي، المنتشرة الآن أكثر من أي وقت مضى، تتماشى تماماً مع الوجود الدائم المغري للإنترنت في حياتنا، وهرمونات الضغط النفسي مثل نوريبينيفرين والكورتيزول تُفرز بإفراط، ويحفزها على ذلك إحساسنا الجديد بالتشتت والإحباط وضيق الوقت؛ إننا نبحث عن إجابات، جزئية على الأقل، لأعصابنا المرهقة جداً، وأوقات تركيزنا الممزقة، بالأدوية المضادة للقلق، وتمارين التأمل، والسباحة بعد الظهر، أو لعب الغولف بعيداً عن الآي فون، وهذه البدائل كلها تمثل ملاذات شرعية بعيداً عن الإثارة الكثيفة التي تولدها الإنترنت، ولكن القراءة هي الاستجابة المثلى من بينها كلها؛ إنها البديل الذي يقدم أتمن المكافآت، كما سأوضح في هذا الكتاب.

إن مشكلة الانتباه المنشطر لم تبدأ بالعصر الرقمي بالتأكيد؛ ولكن أخيراً، والآن فقط عندما بدأنا نحمل معنا وسائل اتصال إلكترونية حيثما ذهبنا، وصلت هذه المشكلة إلى حجوم هائلة، ويقتبس ولتر كيرن Walter Kirn في كتابه الأطلسي (The Atlantic) في تأملاته حول (كابوس الاتصال غير المحدود) من بيبلييوس سايريس Publilius Syrus وهو عبد روماني محرر وحكيم من القرن الأول قبل الميلاد، قوله: «إن فعل شيتين في الوقت

نفسه يعني عدم القيام بأي منهما». في هذه الأيام، نفضل دائماً شيئين (أو ثلاثة أو أربعة) في الوقت نفسه.

يستدعي كيرن في مقالته الوعد المبكر للإنترنت:

«إلى أين تريد الذهاب اليوم؟»، سألت الميكروسوفت في حملة دعائية في منتصف التسعينيات؛ كان الاقتراح أن هناك مقاصد لا نهاية لها - بعضها جغرافي، والآخر اجتماعي، وبعضها فكري - يمكنك الوصول إليها في أجزاء من الثانية فور تحميل الأجهزة الصحيحة مع البرمجيات الصحيحة، وتم التلميح إلى أبعد من ذلك؛ بأن المكان الذي تريد الذهاب إليه لا يخضع إلا لرغبتك أنت، ولا علاقة لزوجك، ولا لرئيسك بالعمل، ولا لأطفالك، أو حكومتك بذلك.

جميعنا نعرف جيداً الآن أن موقعي غوغل وأمازون يراقبان كل حركة نقوم بها، ويخبراننا بالوجهة التي ينبغي اعتمادها؛ يخبراننا بفاعلية حتى إننا لا ندرك أنهما يقومان بذلك؛ يقول يارون لانيير، وهو عالم حاسوب رائد، إن شبكة الإنترنت أغوتنا إغواءً حتى إننا تخلينا عن حريتنا، واتضح أن ما تعنيه (حرية) الوصول إلى المعلومات هو باختصار قبولنا بالسماح للشركات بالوصول إلينا بحُرِّية. وأما بالنسبة إلى الكتاب، والمؤلفين الموسيقيين، والأدباء، فقد عنى ذلك أيضاً السماح للملايين من مستخدمي الإنترنت الآخرين بالحصول على عملهم المبدع من دون مقابل، ويكتب لانيير: «الآن تماماً، نحصل على خدمات مجانية مقابل عدم الدفع لنا والرضا بالتجسس علينا، في الوقت الذي ما زلنا ندفع فيه الكثير مقابل قوة الإرسال». لقد كانت الحرية آخر شيء في عقول أسياد الشبكة، واتضح أن ما يرغبون فيه هو تشكيل وقولبة المستهلك، أي نحن؛ باكتشاف أنماطنا؛ ما نقرأ، وما نشترى، وما نشاهد، وما نكتب لدى اتصالنا بالشبكة. يسألونك: «إلى أين تريد الذهاب اليوم؟». ولكي يجمعوا كمّاً ضخماً من المعلومات عنا، علينا الذهاب إلى أماكن، ليس اليوم فقط، بل كل يوم (كل ساعة، وكل دقيقة)، وفجأة (لنقل: بحلول عام 2005م) لم يعد ذلك يشبه الحرية تحت أي اسم.

تظهر شخصيتنا المقيدة في تفاعلاتنا مع الإنترنت أيضاً في الإيقاعات الجامدة التي تفرضها علينا، بالتنقل المستمر بين المصادر المتنافسة على لفت الانتباه، ويمكن لأي شخص يحاول التفكير مطولاً وبجدية فيما يقوم به أن يرتبك بسهولة في إجراءات الشبكة.

في ملحمة الأوديسة لهوميروس تخبر الكائنات الأسطورية ((Sirens)) التي لها رؤوس نسوة وأجساد طيور) أوديسيوس أن لديها آخر الأخبار عن شهرته، وأعماله البطولية التي كانت تنتشر عبر المتوسط. ولأنها تشرف على علاقاته العامة/تصويراته النسبية، ادعت أيضاً أن لديها الكلمة الفصل عن نفسيته، فوعدت أن تخبر البطل المشهور عالمياً من هو حقاً. وعلى شاكلة تلك المخلوقات الأسطورية، تغريك روابط الشبكة حالما تنقر عليها بأن عليك حقاً أن تكون في القمة؛ عليك أن تعرف ما الذي يحدث في العالم، ومن ثم ما يحدث لك (وكلمة (من ثم) هنا هي كلمة غامضة). ولم لا تتابع بعض المعلومات المعرفية ذات الصلة من حيث المبدأ؟ أو تلقي نظرة على مقالة يمكنها -من يدري؟- أن تمنحك فكرة جديدة مهمة؟ أو، لم لا تأخذ إجازة، إجازة سريعة لتحظى بالقليل من المرح والسرور؟ وقبل أن تدرك ذلك، ستكون قد أهدرت اليوم في مشاهدة مقاطع مصورة حمقى سخيفة؛ وأصبحت عينيك وروحك بالتعب.

ويكتب كيرن: إن «التبديل المستمر والتركيز على الأشياء»، التي تتطلبها منا الساعات التي نقضيها على الإنترنت، «يقوي بعض مناطق الدماغ المتخصصة بالمعالجة البصرية والتنسيق الفيزيائي، في الوقت نفسه الذي يبدو أنه يضعف بعض المناطق العليا المتعلقة بالذاكرة والتعلم». وفي تجربة أجريت في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس، طُلب ممن خضعوا للتجربة أن يفرزوا بعض بطاقات التصنيف، بداية وهم في جو من الصمت، ثم وهم يستمعون لأصوات محددة كان عليهم تحديدها وهم يفرزون البطاقات، وقد «تمكن الخاضعون للتجربة من فرز البطاقات وهم يستمعون للإلهاء الموسيقي تماماً مثلما كانوا يفرزونها في صمت»، بيد أنهم كما يكتب كيرن: «عانوا كثيراً في تذكر ما كانوا يفرزونه بالضبط حالما انتهت التجربة»، فقد حولت أدمغتهم التركيز من الحصين الذي يعالج الذاكرة إلى الجسم

المخطط الذي يتعامل مع فعل الحفظ غيبًا. كان بوسعهم تنفيذ المهمة، ولكنهم لم يستطيعوا تذكر ما قاموا به، وينطبق الأمر نفسه على أطفالنا ومراهقينا الذين يفعل غالبيتهم عادة شيئاً آخر وهم يقرؤون؛ مثل تصفح الإنترنت، تفحص الرسائل القادمة، وإرسال النصوص، ومشاهدة المقاطع المصورة، والاستماع للموسيقى (وأحياناً كلها دفعة واحدة).

إن الانحدار في مقدرة الشباب على التركيز في مصدر ممتع واحد واضح تمامًا، وفق ما لاحظ العديد من الأساتذة والآباء بمزيد من القلق، ثم إن الأطفال الذين ترعرعوا في أحضان التقنية الرقمية أكثر عرضة لمرض الانتباه المشتت المستمر مقارنة بالأجيال الأكبر سنًا الذين اكتشفوا عالم الإنترنت في مرحلة لاحقة من حياتهم، ووفقًا لدراسة أجراها معهد إنرسكوب ريسيرش Innerscope Research في بوستن فإن «السكان الرقميين الأصليين؛ أي الناس الذين ترعرعوا مع التقنيات الجديدة، يتقلون من مصدر رقمي إلى آخر بمعدل سبع وعشرين مرة في الساعة، في حين أن معدل المهاجرين الرقميين؛ أي أولئك الذين بدؤوا استخدام التقنية المتحركة وهم بالغون، كان سبع عشرة مرة في الساعة».

وتقول الأغلبية من الرقميين الأصليين، 54%، إنها تفضل إرسال رسائل للناس بدلاً من الحديث معهم، (في حين فضلت نسبة قدرها 28% فقط من المهاجرين الرقميين إرسال الرسائل على الحديث مع الناس).

إن القيام بشيئين أو ثلاثة في الوقت نفسه يقلل من الفاعلية؛ بسبب الجهد الذي يتسبب به التحول المستمر للانتباه، ومثل هذا الانتباه الجزئي المستمر (CPA) يمنعك من أن تخصص نفسك بصورة كافية لأي شيء بمفرده. وفي حقبة الإنترنت، غالبًا ما نشعر أننا حققنا الحرية الكاملة في رؤية أو سماع أي شيء نرغبه وقت نشاء، ومع ذلك لا نعرف كيف نرتب أولوياتنا؛ كيف نقرر ما الذي يستحق انتباهنا؛ نشعر بالضيق والشلل. وفي بحثنا عن التنوع، يبدو أنه لدينا دائمًا الكثير مما يجب القيام به.

يرى كيرن أن تقلنا المحموم المعتاد بين الآي فون، والحاسب المحمول، والكتب الإلكترونية، وموقع تويتر، وتيمبلر، واليوتيوب- وباستراحة مؤقتة مع الشخص الذي يقف

أمامنا- سيُنظر إليه في مستقبل قريب أفضل على أنه جهد مشعوذ متدرب «وعندما ننظر إليه في يوم من الأيام، فإننا سننظر إلى شعوذتنا بالحيوات الإلكترونية»، يقول كيرن: سيبدو المشهد جذاباً وبأسلوب يشبه نمط تلك المشاهد في الأفلام القديمة التي نرى فيها عاملات المقاسم الهاتفية ذوات الظهور المتبيسة والشعر في الدبابيس المحكمة، اللواتي يحولن خطوط الهواتف بسرعة من ثقب إلى آخر وهن يصلن شيكاغو بميامي، والمراسل بمقر إدارته في المدينة، ورجل الأعمال بمكتبه، كانت مثل تلك المشاهد لبعض الوقت وسائل سينمائية مختصرة لجنون الحياة المعاصرة، ولكن تغيرت تقنية الاتصالات؛ وفقدت عاملات المقاسم أولئك أعمالهن.

إن النجاة من انبهارنا الحالي، ومن وسائل الإعلام المتعددة التي تحيط بنا من كل حذب وصوب، تتمثل في أن نقف أنفسنا على مهمة واحدة، والتصميم على القيام بتلك المهمة على الوجه الأكمل؛ إننا بحاجة إلى التأنى والتركيز لتعلم فعل أي شيء بالصورة الصحيحة؛ أي يستحق ذلك، من صيد الأسماك بالطعم المزيّف، إلى الهندسة الكهربائية والعزف على الكمان، وينطبق الأمر نفسه على القراءة؛ فالقراءة المتأنية - كما أدرك عدد متزايد من المعلقين- هي الطريقة الوحيدة للتمتع بالكتاب بصدق.

لطالما كانت قراءة التصفح السريعة من أجل الحصول على المعلومة ملازمة لنا دائماً، فكثيراً ما كانت تصمم قصة جيدة في جريدة، مدعومة بعنوان رئيس جذاب، بطريقة تجذب القراء لقراءة بعض الفقرات الرئيسية، عوضاً عن قراءة القصة حتى النهاية، وقد اعتمدت شبكة الإنترنت الأسلوب التقليدي المكثف وأبرزته، وهي التي تشجعنا على الاهتمام بالحقول الرقمية بدلاً من أن تطلب إلينا الغوص والتفكير في الموضوع، ولكن هناك استياء متنامٍ من النموذج السائد للأنباء المعدة لقراءتها سريعاً؛ إذ إن مواقع مثل Longform.org ترضي القراء الذين يرغبون بقراءة مقالات ثرية، ويرغبون بقراءتها حتى النهاية، فهؤلاء القراء لا جنون جوعى من نظام المعلومات اللامتناهي اللذيذ وغير المرضي أيضاً، المعتمد على نُبْف من المعلومات، ويرغبون في شيء حقيقي، شيء يستحق القراءة بتأنٍ ودقة؛ يروي ماكس لنسكي وهو أحد مؤسسي موقع لونغفورم، أن موقعه استقبل في يوم اغتيال أسامة بن

لادن 800000 زيارة، من أناس يبحثون عن معلومات شاملة بحجم المقالة عن ابن لادن؛ لم يكونوا يبحثون عن الملخصات المثيرة المؤلفة من فقرتين التي كانت تغزو الإنترنت؛ كانوا يبحثون عن شيء أعمق.

الإنترنت هي صورة مصغرة لعصر ما بعد الحداثة الذي يقدر السرعة والاتصالات السريعة قبل أي شيء، ولكن اتضح أن هذه الفاعلية الظاهرية ليست فاعلة على الإطلاق؛ فانشغالنا وسرعتنا لم ينبع منهما إنتاجية أعلى؛ ذلك أن القراءة على الإنترنت مُدَّة لا تتجاوز ثلاث دقائق تختلف كلياً عن القراءة الجادة، تماماً كما يختلف النقل بين محطة إذاعية وأخرى عن الإصغاء الجاد.

عندما كنت في المرحلة الثانوية، والجامعة لاحقاً، كان كل ألبوم جديد يحصل على عدد من مرات الاستماع يبدو وكأنه لامتناه. اعتقدنا أننا كنا نضيع وقتنا، ولكن كنا مخطئين؛ إذ لم يكن تبجيلنا المستحوذ علينا في عمر الثامنة عشرة لآخر ما يصدر من الفنيل (كناية عن أسطوانات التسجيلات الموسيقية) من فرقة التوكينغ هيدز أو Talking Heads الموسيقي والمغني والمؤلف الإنجليزي Elvis Costello إليفس كوستيلو، تبجيلاً بلا هدف، ولكن إخلاصاً محبباً للتفاصيل التي لا تظهر إلا عندما تستمع إلى شيء مراراً وتكراراً. تستلزم القراءة الإخلاص نفسه؛ إن المقياس الذي يقيس مدى تأثرك بالكتاب وانجذابك له هو رغبتك بقراءته مرة أخرى.

في العالم الرقمي الشجاع الجديد، نقصد السرعة بدلاً من التكرار والدراسة البطيئة، ونتيجة لذلك، ضاعت منا حقيقة أن القراءة الجيدة تتطلب الوقت والصبر. لا يمكن توكيد هذه النقطة بصورة كافية؛ إذ لا تكشف الحجج التي بطول كتاب، والأعمال الإبداعية الأدبية، عن نفسها إلا بمرور الوقت، ولذلك يجب علينا العمل بجد للحصول على المزيد من الكتب التي نقرأها، ودائماً ما تكافئ الكتب الجيدة القراءة المتأنية، والانتباه الدقيق، وهذه النقطة ضرورية من ناحية تعليمية منهجية أيضاً؛ إذ إننا لا نفيد أطفالنا بتشجيع فكرة أن كل شيء ينبغي أن يكون سهلاً وسريعاً لا عناء فيه، ففي أغلب الأحيان يعني (البحث) لطلبة المرحلة

الثانوية، أو حتى الجامعات، إلقاء نظرة على الويكيبيديا، والقيام ببحث سريع على موقع غوغل، ثم قص الاقتباسات ولصق بعضها ببعضها الآخر، وفي أفضل الأحوال، سيضع الطالب علامات اقتباس على المقاطع الملتصقة، وبسبب عروض الإنترنت الدائمة للنصوص الجاهزة للاستعمال، أصبحت السرقة الأدبية وباءً ينتشر كالنار في الهشيم، كذلك فإن الكتابة السيئة، ومجرد تجميع جمل من الشبكة العنكبوتية، مع بعض التغييرات أو الإضافات من عند المرء نفسه، تسيير جنباً إلى جنب مع القراءة السيئة.

وما ينطبق على الكتابة ينطبق بالقدر نفسه على القراءة؛ فإنتاجنا الدائم من النصوص الممزوجة بعضها ببعض يتحد مع التوجه الجديد للتكر العفوي لصفة الإبداع؛ قد يستغرق الأمر مجرد دقيقة أو دقيقتين على الإنترنت لكتابة قصيدة أو قراءتها، إلا أن العمل الإبداعي الحقيقي - سواء جعل شيئاً ما ممتعاً، أو فسر شيئاً ما بطريقة ممتعة - يتطلب منك اكتساب أسلوب يمكنك من تحقيق هدفك. ليس ثمة إتقان لأي مهارة أو حرفة من دون الوقت والإخلاص والتركيز، وينطبق هذا الأمر على العزف على البيانو، والتفوق في الرياضة، ورسم لوحة، والقراءة. «إذاً، هناك قراءة خلاقة، تماماً مثلما هناك كتابة إبداعية»، هذا ما يدعيه رالف والدو إيمرسن، «فعندما يكون العقل منشغلاً بالعمل والإبداع، تصبح الصفحة التي نقرأها من أي كتاب مضيئة بإلهامات متعددة، وتصبح كل جملة مزدوجة الأهمية، ويصبح إحساس مؤلفنا واسعاً كوسع العالم». فوفق بصيرة إيمرسن العظيمة فإن الإبداع يتطلب (عملاً) مقروناً (باختراع)؛ ويحتاج ذلك إلى جهد.

إن الجهد الذي نحتاج إليه للحصول على قراءة مجزية حقاً، على الطرف النقيض للكسل الذي نتصفح به النصوص التي طورناها في العقود القليلة الماضية التي هيمنت عليها شبكة الإنترنت، وقد اكتشف الباحثون أن الناس يميلون إلى قراءة نصوص الإنترنت، سواء أمن المدونات كانت أم من صفحات الفيسبوك أم من قصص الأخبار، على صورة حرف F في اللغة الإنجليزية؛ إذ يبدوون بقراءة السطر الأول، أو الأسطر الأولى القليلة من النص، وبعد ذلك يقرؤون بصورة أفقية إلى الأسفل، بحيث يقفون أمام الهامش الأيمن

(الفرع الأدنى والأقصر لحرف F)، وتوفر العناوين الفرعية أو النقاط الرئيسية فروعاً إضافية للحرف F: وللانسجام مع نمط F، فإن مثل هذه العناوين الفرعية يغلب أن تكون أقصر من العنوان الرئيس في الأعلى، وفي النهاية وفي منتصف النص تقريباً، تبدأ عين القارئ بسلك أقرب الطرق نحو الهامش الأيسر للصفحة، متتبعاً الجذر العمودي للحرف F بطريقةٍ (تتهي) النص من دون قراءة معظمه في حقيقة الأمر. وبسبب ضغط الوقت، يكون القارئ في سباق نحو نهاية النص، وبسرعة أكبر يهبط عمودياً نحو نهاية المقال.

ويكتب ديفد رزلي وهو (خبير إستراتيجي صاحب مدونة تسويقية) عن الأهمية المهيمنة لنمط الحرف F بقوله: «إن معظم قراء المدونة مصابون باضطراب عجز الانتباه... ومن ثم يجب بناء محتواك بحيث يكون ذلك بالحسبان». إن أصحاب الشركات الدعائية مدركون لنمط الحرف F تماماً؛ إذ إن أعلى الدعايات هي التي تقع في أعلى الجزء الأيسر من صفحة الشبكة، في القسم الأدم، أي الزاوية الأشد لفتاً للانتباه من الحرف F. (وهذا على عكس التصميم التقليدي لصفحات الجرائد الذي يحتوي فيه الجزء الأيمن العلوي من الصفحة على الخبر الرئيسي).

يمكننا مقاومة نمط الحرف F الذي تستخدمه الشبكة لبناء قراءتنا، وتبني سرعة أكثر ملاءمة، أي سرعة تُمكننا من مواجهة النص بصورة أشمل. لدى كل منا حرية اختيار ما يرغب في قراءته، قد تقف التقنية الجديدة عائقاً في طريق ذلك، ولكن ما زال بمقدورنا التحكم في تجربة القراءة الخاصة بنا.

ومع أن الهيمنة المتزايدة للإنترنت في حياتنا مبعث قلق عميق، إلا أنه يجب ألا تكون سبباً لليأس. وإن الفكرة القائلة بأن الإنترنت قد غيرت بنية عقولنا إلى الأسوأ، لهي فكرة غير صحيحة تمام الصحة؛ فلا يمكن لذلك أن يحدث في غضون عدة عقود؛ إذ إن التطور يستغرق وقتاً، ولكن يمكن للاستخدام المكثف للإنترنت منذ وقت مبكر، أي في وقت ما زال دماغ الطفل فيه قيد النمو، أن يؤثر في الدماغ، تماماً مثلما تؤثر الحبوب المخدرة (بالتأكيد لا ترغب في إعطاء طفلك الصغير الكافيين أو نوعاً من مخدرات الأمفيتامين،

أليس ذلك صحيحًا؟)، وحتى عند الكبار، إن العودة المتكررة إلى الإنترنت تشكل استجاباتنا بطريقةٍ - كما أصف دائمًا - قد يجدها الكثيرون الآن مقيّدة بدلاً من أن تكون محرّرة. قد يحتاج الأمر إلى بعض الوقت قبل أن يقرر الباحثون مقدار استخدام الإنترنت، والعمر الذي يستخدم فيه، الذي يؤدي إلى اضطراب عجز الانتباه، إلا أن الدليل يعرض زيادة مرعبة في اضطراب عجز الانتباه بين أطفالنا، مقرونًا باستخدام لا نظير له للإنترنت في العقد الماضي، وإن الحجم الكبير للوصفات الطبية التي كتبها الأطباء لعقازي أيدرال وريتالين مرعب ومخيف.

إن اليافعين هم الأكثر تأثرًا بأخطار العصر الرقمي؛ إذ إن متوسط ما يرسله المراهق العادي هو قرابة ثلاثة آلاف رسالة نصية شهريًا، وذلك رقم صاعق ومفزع. وقد وصف مارك بورلين أشكال الضغوط التي يفرضها تواصل المراهقين هذا مع أقرانهم: يتبادل المراهقون الكلمات والصور طوال اليوم، وفي قسم كبير من الليل أيضًا، وقد أصبحت غرفة نوم المراهق (مركز قيادة)، كما يكتب بورلين. إن النصوص والتغريدات والصور «تتهمر كل مساء، وإن لم يردّ الأطفال، فسيتخلفون عن ركب أصحابهم». ويرى بورلين أن «الأطفال بحاجة إلى مُتَنَفِّسٍ وملجأ»؛ أي يحتاجون إلى حماية من المطالب الآنية من مجموعة أقرانهم. إن القراءة عالم يمكن للشباب دخوله بنفسه وبرغبته، ويمضي فيه وقتًا بقدر ما يرغب، فبإمكانه أن يحرر نفسه من العمل المحموم الذي يفرضه عليه الهاتف الذكي بحيث يشكل إجابة فطنة أو استجابة بملاحظة بارعة لكل جملة يقرؤها. ويكتب بورلين، وهو أستاذ في الجامعة، أن طلبته يشعرون بضغط كبير للتواصل، وفتح الهاتف في اللحظة التي تنتهي فيها الحصة الدراسية، فهم يخشون أن يفوتوا شيئًا ما، «وهل هناك شيء أسوأ من الإقصاء؟» يتساءل بورلين. إلا أن وجوه الطلبة متوترة وليست مرحة، وهم يتعاملون منكبين على الشاشات التي بأيديهم. وتحت وطأة النظام الجديد من القسوة والتأكد والاستجابة، ضاعت المتعة. ويستشهد بورلين بعدد من نقاد الإنترنت، من ضمنهم لي سيغل، ونيكولاس كار، وماغي جاكسون، الذين يتفقون مع تقديره للضرر الذي أحدثه العصر الرقمي على أرواحنا.

الأخبار الجيدة هي أن تأثيرات الإدمان على الإنترنت يمكن عكسها؛ فأنت لم تصبح مخبولاً فجأة لأنك تلعب ألعاب الشبكة السخيفة، تماماً مثلما لا يفقد مدمن القمار قدرة التفكير إلا بعد تقييد نفسه مدة طويلة أمام ماكينة الشقبيية. فالطريقة التي تحثك بها الإنترنت وتهيبك لـ (الفعل) (لاحظ علامات اقتباسي المشكّكة) تشبه لعب القمار؛ هناك هالة من الإكراه حولها تلقي بظل قاتم حتى عندما تمضي وقتاً ممتعاً. لا يمكن لتصفح الإنترنت أن يتسبب في إبهاج المقامر، وليس بوسعه - باستثناء حالات نادرة - أن يأخذ منزلك وعائلتك (إلا إذا كانت المواقع التي تزورها للمقامرة)، ولكن الظاهرتين؛ القمار وتصفح الشبكة، يتقاسمان عنصرًا مشتركًا: فهما يتقدمان بوتيرة زائفة سريعة تبقى مختلفة تمامًا عن الإيقاع الذي نتبناه عندما نتمشّى أو نتحدث مع صديق، أو نقرأ كتابًا بصورة جديّة.

إن الفرق بين وتيرة بيئة الاتصال بالشبكة وتلك المتعلقة بالأنشطة الأخرى التي ذكرتها توًّا، ليس فقط أن الشبكة تنادي بالسرعة؛ ولكنّ هناك شعور بأن إيقاع الشبكة يفرض بقسوة بدلًا من أن يكون تعبيرياً تشعر به؛ حتى عندما يتم الاتصال بالروابط بسرعة، وحتى أسرع الحاسبات في العالم سيجعلك عبداً منتظرًا زمن تفاعله معك، وما زال سيعرض عليك مصفوفة من الخيارات للنقر عليها. ببساطة، لا يمكنه الاستجابة لك بالطريقة التي يستجيب بها الإنسان، أو المنظر الطبيعي، أو اللوحة، أو حتى الكتاب. كما أن الموسيقى تقدم لك بيئة مرهفة بطريقة لا يمكن للشبكة تقديمها بأي حال من الأحوال. وفي هذا الجانب المصطنع قصير المدى لشبكة الإنترنت، يرى يارون لانير افتقارها للمقدرة التعبيرية؛ فلكل من الأدب، والموسيقى، والفن، قوة تعبيرية، لكن بالمقارنة، تقودك الحواسيب بطريقة الخطوة تلو الخطوة، فأنت لا تنغمس في حقيقة، بل تحرق في شاشة تطرح عليك أسئلة وتطلب إجابات.

لا يمكنك أن تنسى نفسك في الشبكة أبدًا بالطريقة التي تنسى فيها نفسك في كتاب؛ فأنت لست حرًّا على الإطلاق وأنت تنتظر تغير الشاشة، وهذا هو السبب وراء محاكاة أفضل قارئ الكتاب الإلكترونية الإحساس بالكتب بأقرب هيئة ممكنة. إن اللجوء الأساسي للقارئ الإلكتروني هو أنه يريحنا من حمل مجلدات ضخمة (مع أن ذلك يخضعنا أيضًا لحمل شاشة

أخرى، وإذا ما كنا نحدق بشاشة طوال اليوم في حجرة نوم صغيرة؛ فقد نرغب بالصفحة المطبوعة بوصفها ملاذًا). نريد من القارئ الإلكتروني أن يوفر لنا حميمية الكتاب؛ نريد أن نتصفح، ونقلب الصفحات، ونكتب ملحوظة في الهامش. وبعبارة أخرى، إن القارئ الإلكتروني مريحة بصورة رائعة، ولكن هل هناك أي شيء تفعله لا تستطيع الكتب المطبوعة فعله؟ بوسع القارئ الإلكتروني الاتصال بالموسيقى، وبالفن، والتسجيلات المصورة، بطرق ليس بوسع الكتب القيام بها، ولكن تتطلب الكتب انتباهنا الكامل، ومن ثم فإن مثل هذه الزيادات الإلكترونية ما هي في العادة سوى عقبات في طريق ذلك. فهل تريد فعلاً سماع بيتهوفن Anthony Burgess وأنت تقرأ الساعة البرتقالية (A Clockwork Orange) لأنتوني بيرغيس الذي تستمع شخصياته السفاحة دائماً لـ (لويدوغ فان) على مكبر الصوت؟ الجواب لا؛ إن تذكر كيف ترن موسيقى بيتهوفن في الأذن أكثر من كاف. وإن كنت تصغي في الوقت الذي تقرأ فيه، فإن الموسيقى ستفوز على الكلمات.

ومع أن كتاباً سمعياً منجزاً بطريقة جيدة، غالباً ما يضيف لفهمنا للنص المكتوب، فإن الكتب موجودة قبل أي شيء على الصفحة، إنها كتابة وليست كلاماً، وهناك فرق بين الاثنين؛ فنحن لا نسجل في أغلب الأحيان محادثاتنا للاستماع لها لاحقاً، فهي لا تتمتع بالصورة الجميلة التي تتمتع بها قطعة جميلة من الكتابة جديدة بالتذكر. الكلام يحدث في اللحظة، أما الكتابة فهي شيء تعود إليه لاحقاً. ومع التوصل إلى إرسال الرسائل المباشرة وتويتر، فإن الفرق بين الكلام والكتابة يضمحل بسرعة.

يقول عالم اللغة جون مكهورتر، المغرم جداً بتويتر، إنه كتابة بالمعنى التقني للكلمة فحسب؛ تويتر هو حقيقةً كلامٌ بصورة مكتوبة. لا غضاضة في ذلك أبداً، باستثناء أننا تأقلمنا معه. وعندما نواجه كتابة حقيقية، كتابة تتطلب تركيزاً، نجد أنفسنا مهزومين ومحبطين، نشعر بالملل والضجر حتى قبل معرفة الشيء الذي يسبب لنا ذلك. وإن إلقاء نظرة على تغريدة لا يستغرق سوى بضع ثوان، في حين يتطلب فهم رواية أياماً، وأحياناً أسابيع. وليس هناك أي سبب يمنع قارئاً تواقفاً من أن يكون كاتب تغريدات ماهراً؛ تماماً مثلما أنه لا يوجد

أي عائق يمنع مغرمًا بالأوبرا من أن يحب أغنية شعبية لا تستغرق سوى ثلاث دقائق. ولكن تذكر أن التغريدة هي أشبه بكورس أغنية البوب، وليس الشيء برمته، وحتى أغنية الدقائق الثلاث هي ذات بنية، وغالبًا ما تتمتع ببنية راقية ليست في التغريدات، بل ولا ترغب في تحقيقها. التغريدة صورةٌ على الشاشة، فاصل، وإحساس لحظي. لا يمكنك العيش على تلك الحمية، وفي نهاية المطاف ستصاب بالإحباط من مثل تلك اللقيمات المتناهية الصغر، ومن مثل تلك الفواصل المتكررة.

نحن بحاجة إلى الاستمرارية، وثبات العمل على الموضوع نفسه، لحظة بعد لحظة، وصفحة بعد صفحة. وينطبق الأمر على القراءة كما ينطبق على الاستماع للموسيقا أو مشاهدة الأفلام. وثمة سبب لكون التنقل بين عدة مصادر للمعلومة أمرًا محبطًا، في حين أن فعل شيء محدد بعينه أمر مُرضٍ، حتى في أيام الطفولة كنا نشعر بالفرق الشامل بين أن تكون مشتتًا وبين أن تكون منشغلًا بسعادة، وإن معرفة هذا الفرق هو جزء من موروثنا التطوري، وإن أحد إنجازات الأطفال الدرّج المميزة، التي تحدث عادة عندما يكونون في عمر الثالثة، تتمثل في مقدرتهم الجديدة على التركيز على نشاط بعينه مدة مطوّلة من الزمن، بدلاً من الاندفاع بسرعة من دمية إلى أخرى كل بضع دقائق (وذلك هو الأسلوب المميز للطفل ذي العامين). يأتي هذا النضج المبكر بوصفه راحة للوالدين اللذين يشعرون بفخر لأن طفلهما قد تعلم كيف يركز على شيء بمفرده ويستكشفه بدقة أكبر. إن القدرة على الاستغراق مدة طويلة في لعبة (أو مقطع مصور، أو كتاب) تستمر لتتطور بنمو الطفل، مع شغف بالتجربة المتكررة؛ كالرغبة في سماع قصة مرة أخرى، أو الاستماع للأغنية نفسها مرات متكررة. إن الرغبة في الاستغراق بأي شيء هي أحد الأشياء التي تُعرّف ما يعني أن تكون إنسانًا ناضجًا. وإن مقدرتنا على التركيز المستغرق طويل الأمد قد أدت أيضًا إلى معالم ثقافية ضخمة؛ فما كنا لنكون علماء الرياضيات والفيزيائيين والطهاة ومبرمجي الحواسيب والكتاب والفنانين الذين نحن هم اليوم، لو لم تكن لدينا الرغبة في الاستغراق الصامت الممتع. إننا نمنح أنفسنا الحيز، وقبل أي شيء الوقت، لدراسة مسألة، أو لخلق شيء بحرص وتأنٍ. وعندما قال فرويد إن البشر يحتاجون إلى العمل والحب ليعيشوا، فقد

كان يشير إلى عنصر أساسي يتقاسمه هذان النشاطان؛ إن العمل الأفضل يستدر حُبنا، والحب لا قيمة كبيرة له إن لم نعمل من أجله. الحب يعني اهتمامًا ثابتًا مُحببًا؛ وعندما نعمل (بدلاً من أن نكون عمال أجره وحسب)، فإننا نقف أنفسنا على عملية تصبح ملكنا. قد يبدو مثل ذلك العمل مجرد هوس بالتفاصيل، ولكنه ليس كذلك.

إن العمل الحقيقي الذي أعني به أي حرفة أو ممارسة جديدة بالاهتمام، غالبًا ما يبدو فرديًا وانعزاليًا حتى عندما يكون هناك شخص آخر يعمل بجانبك تمامًا. إن القراءة، بوصفها صورة من صور العمل، تحتاج إلى عزلة. أما الثروة الاجتماعية، التي تنتشر في كل زاوية من زوايا الإنترنت، فتعيق مقدرتنا على العمل. وعندما تكون الثروة جيدة، فهي تسلينا لبرهة وجيزة على الأقل، وعندما تكون سيئة (كما هو الحال في أغلب الأحيان ولا سيما في الردود على المنشورات في المدونات أو مقالات الأخبار) فقد تكون خبيثة بصورة مرعبة. إن الجدل بطريقة مستوحاة من قراءة عميقة يختلف عن مجرد طرح آراء مندفعة، وهي الطريقة المألوفة في أرض المدونات، حيث نتخذ مواقف عدائية، ونشجُب بحُرِّيَّة تامة، ونفخر بأنفسنا. وقد لاحظ كاس سنسشتين أن الآراء تنزع إلى توكيد نفسها على الإنترنت، بدلاً من أن تصبح جزءًا من الحوار. وقد لاحظ معظمنا أن الشبكة، ربما بسبب عدم معرفة هوية المشاركين، تشجع المستخدمين على سلوك مسلك الحرب، فعندما لا تعرف هوية من تتحدث معه—عندما تتحدث، من حيث المبدأ، إلى كل شخص—تميل إلى أن تصبح مدافعًا عن رأيك، ومن ثم عدوانيًا بصورة لا داعي لها. إن إشعال أشكال الذم، ورفع الرايات المحموم، لا يشكلان محادثة بالمعنى الصحيح للكلمة.

عادة ما تكون تعليقات القراء على الكتب المنشورة على الإنترنت أكثر ميلاً إلى المجاملة الضعيفة منها إلى الذم العنيف، والتعليقات المختصرة على موقع أمازون، المقرونة بنجماتها المحتومة، هي في العادة أكثر قربًا إلى الدعايات المغالى بها منها إلى الاستجابات القيِّمة. وهناك مكان مهم للمحادثة عن الكتب التي نقرؤها؛ ولكن يجب تغذيتها بمشاركة مسؤولة مع القراء الآخرين، بدلاً من السعي لإحراز النقاط بأراء سريعة من

دون تدبر، أو مجرد الترييت على كتف المؤلف. ثمة فرق بين تعليق عميق وردة فعل من دون تفكير، وعلينا أن نحفظ بالإحساس بذلك الفرق في عقولنا، ليس فقط عندما نتحدث مع القراء الآخرين، بل مع مؤلفي الكتب التي نقرأها؛ لأن القراءة في حقيقة الأمر هي محادثة مع المؤلف (سأتحدث عن موضوع القراءة بوصفها محادثة لاحقاً).

يرى بعضهم أن العصر الرقمي قد يكون عاصفة من التشتت، ولكنه أعطانا شيئاً جديداً ومهماً، صوراً مبتكرة من التمارين والإبداع العقلين. وماذا عن ألعاب الفيديو، على سبيل المثال؟ ففي عام 2012م، ظهرت قصة في الصحيفة البريطانية التلغراف (Telegraph) تحت عنوان رئيسي (ألعاب الفيديو (أكثر إبداعاً من القراءة)). وكان العنوان الفرعي مثيراً أيضاً بالدرجة نفسها: (لا ينبغي للآباء الذين ينتمون إلى الطبقة الوسطى أن يكونوا قلقين من السماح لأطفالهم باللعب بألعاب الحاسب؛ لأن تلك التجربة أكثر إبداعاً من القراءة، هذا ما قالته إحدى رائدات كتاب المسرحيات في البلد البارحة). والكاتبة هي لوسي بريبل (مؤلفة الدراما الساخرة بعنوان إينرون Enron) التي اعترفت أنها كانت مدمنة ألعاب فيديو في مراهقتها، عندما كانت ألعاب الفيديو أقل مكرراً وتعدداً للأبعاد مما هي عليه الآن. وفي مقالها الأساسي عن الموضوع لصحيفة الغارديان (Guardian)، كتبت بريبل أن اللعب «مبدع، مقارنة بسلبية مشاهدة فيلم أو قراءة كتاب؛ إذ إنك تمتلك خيارات، وغالباً ما تصمم العالم من حولك بنفسك».

من المبكر جداً القول إن ألعاب الفيديو قد تصبح شكلاً فنياً يناقض الروايات أو المسرح أو الأفلام السينمائية، ولكن من الواضح أن بريبل مخطئة في القول إن اللعب بلعبة فيديو أمر مبدع، في حين أن قراءة كتاب أمر سلبي، فإذا قرأت بذكاء - أي: إن تعلمت كيفية القراءة بالطريقة المثلى - فإنك تقوم باختيارات في كل لحظة، وتفكر فيما هو مهم في الجملة أمامك، وكيف تتألف أفكار الكتاب معاً، والطريقة التي أنجز بها المؤلف عمله. وإن ملاحظتك لعدد كبير من الجوانب في فن المؤلف يجعلك شريكاً للمؤلف، لا مجرد مستقبل سلبي للنص. فأنت تتعامل مع كلمات الكتاب وأنت تحاول معرفة ما يتناغم معك ولماذا.

هناك أسلوب لخياراتك حول كيفية الاستجابة للكتاب؛ تمامًا مثلما هناك تقنية مطلوبة في أي نشاط تحتاج إلى تعلمه، من رقص الصالونات إلى عزف الموسيقى أو الرسم.

سأدلي بالمزيد حول كيفية تمكن أساليب القراءة من أن تطلق العنان لإبداعك في الفصل المعنون (القواعد)، أما الآن، فإن الفكرة الأساسية هي أن القراءة، مع أنها تختلف عن لعب لعبة، تتقاسم شيئاً مع الألعاب (فلها قواعدها، على سبيل المثال). بالنسبة إلى المشاهد العَرَضِي فإن لعب لعبة، سواء أكان ذلك على الشاشة أو بعيداً عنها، قد يبدو أكثر نشاطاً من القراءة؛ لأنه يتطلب حركة فيزيائية؛ إذ يجب على اللاعب النظر، أو توجيه ضربة عنيفة، أو رمي كرة، أو تحريك قطعة. إن قرارات اللاعب مرئية، ولا يمكن لقرارات القارئ أن تكون مثلها. فعندما تقرأ، تتقفى أثر الكلمات؛ فقد تكون أحياناً مدرِّكاً لاتخاذ قرارات (على سبيل المثال: الكاتب ساخر أم مباشر في قوله؟ أتتجه الحكمة نحو مأساة أم نهاية سعيدة؟)، مع أنه بوسعك في أغلب الأحيان أن تشعر بنغمة الكتابة التي بين يديك من دون الحاجة إلى مناقشة مثل هذه البدائل بذلك الوضوح. وإن الجهد الذي تبذله في القراءة يأخذ صورة تعلم عمق ما هو موجود على الصفحة: التعود على رؤية كتاب بأقصى شمولية وبكل أبعاده. والمقارنة المناسبة هي مع عازف البيانو الذي يشعر بإحساس أفضل فأفضل تجاه قطعة موسيقية وهو يتدرب عليها، ويحفظها عن ظهر قلب، ومن ثم يعمل على تعرُّفها بصدق عدة أسابيع أو شهور أو سنوات، فأنت عندما تقرأ جيداً، لا تكتشف كيفية التلاعب بقواعد العزف لمصلحتك، أو كيفية جعل حالة كئيبة أكثر متعة، أو كيفية المنافسة مع خصم (وكل تلك مهارات أساسية في ألعاب الفيديو)، إن القراءة أشبه ما تكون بإدراك ما هو موجود هناك مسبقاً في النص؛ فهي تتطلب فهم هوية المؤلف، وما يحاول فعله. إن مثل ذلك الفهم الإبداعي، هو تماماً كعزف مقطوعة لموزارت أو بيتهوفن ببصيرة وإحساس. وعلى شاكلة الموسيقى، فإن شخصية القارئ تلون فهمه. ما من شيء أكثر نشاطاً من ذلك.

لطالما كان هناك الكثير من أشكال التششت؛ إذ يَرِدُ هذا الموضوع في كتاب أمثال الإنجيل «دع عينيك تنظر إلى الأمام تماماً... وتأمل بممر أقدامك [4: 25-26]». حذر متقفو

القرن الثامن عشر معتمري الشُّعر المستعار من قراءة الجرائد بتلك الحماسة نفسها التي أحشدها ضد عالم الشبكة العنكبوتية، ولكن هذا الوقت مختلف حقيقة، وأنا مقتنع بذلك؛ فقد وفرت شبكة الإنترنت بلمسة إصبع الوصول إلى كل شيء في العالم، وإن حجم الخيارات الهائل المتوافر في الحال يخلق عندنا رغبة في جمع القليل من أي شيء نراه؛ ونتيجة لذلك، نعود أدراجنا صفر اليمين. يسمى كأنط هذه المصفوفة اللامتناهية من الاحتمالات بـ (السمو الرياضي)؛ لانهائية مخيفة من الخيارات التي تجعلنا نشعر أن لا حول لنا ولا قوة، بدلاً من الشعور بالقوة.

إن عالم الإنترنت الذي صنعه الإنسان يشبه برج بابل. إذ حاول بناؤو بابل الوصول إلى السموات، ولكن بدلاً عن ذلك تشتتوا في كل أصقاع الأرض، وحُكم عليهم بتكلم لغات مختلفة غير مفهومة بصورة متبادلة. كان بين البنائين تعاونٌ ولكن لم يكن بينهم رؤية، فكانوا يبنون من أجل البناء وحسب. إن الوصل بين أكبر عدد ممكن من الناس، وتوسيع شبكة التواصل بقدر ما أمكن، لهو مشروع يشبه مشروع بابل، ولكن التفكك - بَعَثَرَة الناس في أصقاع الأرض، على الرغم من تواصلهم الرقمي - يبدو أنه النتيجة المحتملة؛ لأنه ما من رؤية تتماشى مع الدافع القوي للتوسع، بصورة موقع بعد موقع وبلا نهاية.

لقد تصور جورج لويس بورجيس Jorge Luis Borges في قصته القصيرة بعنوان (مكتبة بابل) The Library of Babel، قبل عصر الإنترنت بوقت طويل، مكتبة تضم كل كتب العالم، ويكون حجم كل كتاب في مكتبة بابل 410 صفحات تماماً؛ ومليئاً بأحرف «دقيقة، وحساسة، وسوداء كثيفة، ومتسقة بصورة لا تضاهى». هناك مناطق ضخمة من مكتبة بورجيس حيث كل كتاب مجرد فوضى، خيوط من الأحرف لا معنى لها. ولكن المكتبة تحتوي أيضاً في مكان ما على رفوفها اللامتناهية كل شيء تم التعبير عنه أو يمكن التعبير عنه في كل لغات العالم المطبوعة. ويكتب بورجيس أنه عندما يكتشف سكانها طاقة المكتبة اللامتناهية «يتوسع العالم فجأة إلى أبعاد الأمل اللامحدود». سينطلق العديد من الباحثين يطلبون الكتاب الذي سيخبرهم بمستقبلهم، ولكنهم سيخفقون جميعاً. يلاحظ بورجيس أنه في مكتبة لا حدود

لها «تكون الاحتمالية المحسوبة في أن يجد إنسان كتابه، أو نسخة مزورة عنه، قريبة من الصفر»، وعندما يصل ذلك الإدراك إلى ذروته، يأخذ اليأس بالناس في المكتبة، فيبحثون بخمول في المجلدات القريبة، ولا يتوقعون العثور على شيء مهم، مجرد بعثرات رخيصة كي تضيء كأبتهم، ويصبحون متصفححي شبكة لا حول لهم ولا قوة قبل وجودها.

سيستमित غوغل في الحصول على مجموعة كالتى وصفها جورجيس، تتألف من كل النصوص الموجودة أو التي قد توجد. لم يصل غوغل إلى ذلك الحد بعد، ومع ذلك، هناك عدد لا بأس به من الكتب التي لم يتم مسحها بعد، بل الملايين في الحقيقة. لا تحتوي الإنترنت على كل الألفاظ المسجلة في التاريخ الإنساني، وإنما يبدو عليها ذلك فحسب. ولكن شعورنا أن كل شيء بالمطلق موجود في مكان ما في حيز فضائي أمر مهم، وإن لم يكن ذلك دقيقاً تماماً. إن عقولنا جفولة من الكم المرعب مما هو موجود. كيف يمكننا الخروج من مثل ذلك العالم الضخم من الحقائق والأفكار والآراء والشائعات إلى شيء يمكنه حقيقة الوصول إلينا والاستجابة لحاجتنا؟

وبمواجهتك للخيارات غير المحدودة تقريباً التي تعرضها شبكة الإنترنت، فإن فرصتك ضئيلة جداً في الوصول إلى ما تبحث عنه؛ كلمات تتحدث معك، وتجديد قوة التخيل لديك، أو حتى تغيير حياتك. وتماًماً مثلما أنه من الصعوبة بمكان مصادفة أشخاص تودهم في ساعة الذروة في مدينة كبيرة، فمن الصعب تحديد ذلك الكتاب الحاسم في الوقت الذي تُقذف فيه بكلمات الإنترنت الجريئة التي تصيبنا بالدوار. وللمفارقة، عندما تكون خياراتنا محدودة نسبياً، فاحتمال أن نعثر على ما نحتاجه أكبر؛ إذ إنه من المرضي تماماً التجول في مكتبة قرية صغيرة هادئة مميزة، مقارنة بتصفح الأكوام المكدسة من الكتب في مكتبة جامعة ضخمة. علينا مَنع أنفسنا من الانبهار بالعدد الضخم لمادة القراءة التي تقدمها لنا الإنترنت، والتي تسبب الدوار أكثر من أضخم المكتبات على الإطلاق.

وما إن نحصن أنفسنا ضد تشتيت الإنترنت الدائم، يمكننا الاستقرار، والإبطاء من حركتنا؛ ونكون عندها مستعدين للاستغراق بسعادة في كتاب. إن التأني، والصبر الذي

يرافقه، هو مفتاح القراءة الجيدة، وهو الخيط الذي يسري في كل ملاحظاتي حول نوع القراءة التي يجب القيام بها للمتعة والفهم. وإذا ما كنت تعتقد أن القراءة هي مجرد تحميل للمعلومات، عندها ستبدو دائماً بطيئة للغاية. إن القراءة من أجل المتعة الحقيقية والفهم لهي قضية مختلفة تماماً عن القراءة من أجل المعلومات. كما أن اكتشاف طريقة كشف الحجة عن نفسها، أو كيف تعمل القصص، يتطلب وقتاً وتركيزاً.

وفي لقطة مشهورة، قالت الممثلة الأمريكية مارلين مونرو: «أقرأ الشعر لتوفير الوقت». وكانت محقة فيما قالت؛ إذ يحتاج الأمر حقيقةً إلى مجرد عشر دقائق أو عشرين دقيقة لقراءة قصيدة غنائية لبييتس، في حين أن رواية لديكنز قد تستغرق أسابيع طويلة. ولكن بطريقة أخرى، أخطأت مونرو الهدف، لأنه حتى قراءة عمل بطول صفحة واحدة من أدب حقيقي تتطلب وقتاً جاداً، أي وقتاً للتأمل. ويعني ذلك تخليص أنفسنا مما سماه جون رسكن John Ruskin، من (المعلومات) الضحلة، المملخة، المتخيلة والمعديّة).